شرح

عمدة الفقه

لشيخ الإسلام

موفّق الدين ابن قدامة المقدسي

طيّب الله ثراه

بَابُ الْمُضْطَرِ

شرح معالي الشيخ

د. مُحمدُ بنُ محمّد المختار الشنقيطيُّ

عضو هيئة كبار العلماء بالسعودية

بَابُ الْمُضْطَر

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

بسم الله، والحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وأصحابه أجمعين.

قال الإمام أبو محمد بن قدامة رحمه الله: "بَابُ الْمُضْطَرِ".

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين، وعلى آله وصحبه، ومَن سار على سبيله ونهجه، واستنَّ بسُنَّتِهِ إلى يوم الدِّين.

أمَّا بعد:

يقول المصنف رحمه الله: "بَابُ الْمُضْطَرِ".

هذا الباب يُعتبر من أهم الأبواب، التي تَعُمُّ بها البلوى، ويحتاج المسلم إلى معرفه أحكامه ومسائله، وهو يتعلق بالأحوال الخاصة، التي تطرأ عليه، فلا يستطيع أن يجد فيها طعامًا حلالًا.

ويُسمِّي العلماء رحمهم الله هذه الحالات بحالات الضرورة، ومن عادة العلماء، والأئمة، والفقهاء، بعد بيانهم لأحكام الأطعمة، أن يُبيِّنوا الأحكام والمسائل، التي تتعلَّق بأحوال الضرورة.

ولقد رحم الله عزَّ وجلَّ عباده المسلمين، فشرع لهم أحكامًا خاصة في أحوال الاضطرار، وسَّع فيها سبحانه على عباده، وشملهم فيها برحمته.

ولو تصوَّر المسلم أن أحوال الاضطرار يُحكَم فيها بأحكام الأصل، لكان في ذلك من

الضيق والحرج ما الله به عليم، ولكنَّ الله وسَّع عن عباده، ويسَّر لهم في الأحكام و التشريع، فجاءت أحوال الضرورة، وأحكام الضرورة متناسبة، وجاءت أحكامها على وفق الحالة، وما تقتضيه من التوسعة على ولي الله المؤمن.

يقول المصنف رحمه الله: "بَابُ المُضْطَرِ"؛ أي: في هذا الموضع سأذكر لك جملةً من الأحكام و المسائل، التي تتعلَّق بالضرورة، الضرورة يصل الإنسان فيها إلى حدٍّ، يخاف فيه على نفسه من الهلاك والموت، أو يخاف فيه على عضوٍ من أعضائه أن يتلف ويهلك، كما لو أصابته المخمصة، فكان في سفرٍ أو في حضرٍ، ولم يجد طعامًا، وبلغ به الأمر إلى درجةٍ يخاف فيها على نفسه أن يموت ويهلك، فحينئذٍ قد أصبح مضطرًا.

وهكذا إذا أصابه المرض، أو نزل به السقم والداء، فأعيته الحيلة، وقرر الأطباء علاجه، ولكنَّ علاجه يحتاج إلى مستثنيات، فهذه حالة اضطرار، وهكذا إذا خاف على سمعه، أو بصره، أو على عضوٍ من أعضائه، كيده أو رجله أن تُقطع أو تتلف، فاضطر إلى فعلٍ ما، فهو مضطر، فالمضطر هو الذي يخاف على نفسه أو على عضوٍ من أعضائه.

والاضطرار يكون في الأطعمة والأشربة، ويكون في غيرها من الأحكام، والأصل في باب الاضطرار، أن الأحكام تتضمن المشقة، والمشقة في الأصل تنقسم إلى قسمين.

المَشَقَّات، والمتاعب، والمصاعب، تنقسم إلى قسمين:

القسم الأول: المشقة غير المقدور عليها.

وهي التي لا يستطيع المكلَّف أن يتحمَّلها بحال، فحينئذٍ يكون في مقام الاضطرار، ومثل هذه المشقات لا يكلِّف الله به عباده، وهذا هو الذي عناه الله.

- بقوله: ﴿ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ (٧٨) ﴾ [الحج:٧٨].
- وقوله: ﴿ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ (١٨٥) ﴾ [البقرة:١٨٥].
- وقوله: ﴿ يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الإِنسَانُ ضَعِيفًا (٢٨) ﴾ [النساء:٢٨].

فهذا النوع من المشقات، الذي لا يستطيعه الإنسان بحال، هذا لا يُكلَّف به البتة.

أمَّا النوع الثاني من المشقة: فهو المشقة المقدور عليها.

أي: أن الإنسان يَقْدِر على هذه المشقة، ولكن حالته تنقسم إلى قسمين:

القسم الأول: مشقةٌ مقدورٌ عليها دون حرج، ودون ضيق.

فهذا النوع هو الذي يكلِّف اللهُ به عباده، وجميع تكاليف الشريعة فيها مشقَّات، ولكنها مشقات لا تبلغ إلى الحرج، فأنتَ إذا كنت نائمًا وأذَّن عليك أذان الفجر، فإنك تُطالب بهذا الأذان، أن تقوم وتؤدي فرض الصلاة، فحينئذٍ تترك الراحة والدَّعَة، وقد تكون في شدة البرد، وقد تكون متعبًا منهكًا، فتقوم وتتوضأ، ثم تذهب إلى المسجد وتصلي..

فقيامك مشقة، ووضوؤك مشقة، وذهابك إلى المسجد مشقة، ولكنها مشقةٌ مقدورٌ عليها، وهي التي حُفَّت بها الجنة، «حُفَّتِ الجنَّةُ بالمكارِهِ»؛ لأنَّه لولا هذه المكاره لما ظهر المطيع من العاصي، ولما ظهر صدق الصادقين ونفاق المنافقين، ورباط الصابرين، الذين يرجون رحمة رب العالمين؛ ولذلك صحَّ في الحديث عن رسول الله ﷺ، أنه قال: «حُفَّتِ الجنَّةُ بالمكارِهِ، وحُفَّتِ النَّارُ بالشَّهواتِ». فهذه مشقةٌ في الصلاة.

ومشقةٌ في الزكاة؛ أنَّ الإنسان يجمع ماله ويتعب في جمعه، ويتحمَّل المشاق في التجارات، والسفر، والغربة، ولربما يجلس ساعات النهار الشديدة ويسهر ليله؛ من أجل أن يحصِّل المال، ثم يأتيه خطاب الله بالزكاة.

وهذا أمرٌ يَشُق على النفوس في الأصل، ولكنَّه أمرٌ ميسور؛ لأنَّ الله أعطى الكثير، وأخذ القليل، ولما أخذ القليل ردَّه بأضعاف أضعافه؛ جزاءً لوليه في الدنيا والآخرة؛ ولذلك ما نقصت صدقةٌ من مال، فهذه المشقة نفسية؛ ولذلك جُبِلَت النفوس على حبِّ الأموال، فإذا تذكر أنه تعب في تحصيله، ومع ذلك أمره الشرع أن ينفق منه على المساكين، وعلى أصناف الزكاة الثمانية؛ بل جعل حقَّ الأصناف الثمانية في المال حقًّا معلومًا، لا مِنَّة فيه ولا فضل لصاحب المال و﴿فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ (٢٤) لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ (٢٥)﴾ [المعارج:٢٥،٢٤].

فإذا جاء يدفع هذا المال، وهو يتذكر أن المسكين لم يتعب في جمعه، ولم ينصب في توفيره، فإنَّ هذه مشقة، ولكنه يؤثر بها مرضاة الله عزَّ وجلَّ، وهي مشقةٌ مقدورٌ عليها، وكُرْهٌ تُرفع به درجته، وتَعْظُم به حسنته، وتُضاعف له وتُرفع له به درجته في الدنيا والآخرة، فهو في هذه الحال على مشقة، ولكنها مشقةٌ مقدورٌ عليها.

وهكذا في بقية تكاليف الإسلام؛ ولذلك اللهُ عزَّ وجلَّ يقول في كتابه: ﴿لا يُكَلِّفُ اللهُ (٢٨٦)﴾ [البقرة:٢٨٦]، فدلَّ على أنه يُكلِّف.

والتكليف: من الكَلَفَة، والكلفة فيها عناء وتعبٌ ومشقة، ولكنها إذا كانت في وسعِ الإنسان، فإنها حينئذٍ تكون امتحانًا وابتلاءً، فيظهر به إيمان المؤمن، ونفاق المنافق؛ إيمان المؤمن بطاعته والتزامه، ونفاق المنافق بإعراضه وامتناعه.

أمَّا القسم الثاني من النوع الثاني من المشقات، في المشقة المقدور عليها: أن تكون مشقةً مقدورًا عليها، ولكن بحرجٍ وضيق.

فإذا كانت مشقةً مقدورًا عليها، وفيها حرجٌ وضيق، خيَّر الله عبده بين أن يفعل وأن لا يفعل، فإذا نظرتَ في السفر، فإنَّ المسافر يجد العناء في السفر غالبًا، وقد قال ﷺ في السفر: «السَّفَرُ قطعةٌ مِنَ الْعَذَابِ».

فإذا سافر فإنه يتعب نفسيًّا وجسديًّا، فإذا كان سفره في وقت الصيام وفي شهر رمضان، خُيِّرَ بين أن يصوم وبين أن يفطر، فإذا جاءت.. الفعل فيه حرجٌ وفيه مشقة على الإنسان، وأراد أن يترخَّصَ بِرخَصِ الله عزَّ وجلَّ فلا حرج عليه، وإذا أراد أن يأخذ بالعزيمة دون أن يضيِّق على نفسه ويعنت، ويكون في العنت، والحرج، والضيق، فلا بأس ولا حرج.

وعليه، فالمشقة على هذه الثلاثة الأقسام:

١- مشقةٌ غير مقدورٍ عليها فلا يُكلَّف بها إجماعًا.

٢- ومشقةٌ مقدورٌ عليها لا تصل بالإنسان إلى حدِّ الحرج، و يُكلَّف بها إجماعًا.

٣- ومشقةٌ بين الاثنين، و هي المشقة المقدور عليها وفيها حرج، يُخيَّر الإنسان فيه بين

الفعل وعدمه.

فإذا كانت المشقة تصل بالإنسان إلي خوف، خوفه على نفسه من الهلاك والتلف، فهذه لا يُكلَّف بها، ومن هنا يقول العلماء: يسقط التكليف.

فإذا كان الإنسان في سفرٍ أو في حضر، وقلَّ الطعام، وأصابت الناس المخمصة، ولم يجد طعامًا إلا ميتةً محرمة، فحينئذٍ إنْ قلنا له: الميتة محرمةٌ عليك كلَّفناه بما لا يطيق، ومن هنا قال العلماء: يسقط التكليف، وتكون الميتة حلالًا له، أي: يحل له أن يأكل الميتة.

- كما قال سبحانه: ﴿إِلَّا مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ﴾ [الأنعام:١١٩]

- وقال سبحانه: ﴿فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلا عَادٍ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ﴾ [البقرة:١٧٣]

- وقال سبحانه: ﴿فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ﴾ [المائدة:٣]، فلا إثم عليه.

فلا بأس حينئذٍ ولا حرج عليه أن يأخذ برخصة الله عزَّ وجلَّ.

ثم إذا كان الإنسان مضطرًا، فله حالتان:

الحالة الأولى: إذا قلنا: إن الضرورة أنْ تصل بالإنسان إلى درجة الهلاك، بحيث يخاف على نفسه الهلاك، أو على عضوٍ من أعضائه أن يتلف، فهذا على صورتين:

١) الصورة الأولى: أن يرى الهلاك أمام عينيه، بمعنى: أن يباشر مقدمات الهلاك، وهذه توجب الترخيص عند العلماء قولًا واحدًا.

٢) والصورة الثانية: أن يكون غالبًا على ظنه، فهو لم يباشر مقدمات الهلاك، ولكنه يعلم أنه إذا لم يأكل في هذا الوقت أنه سيهلك.

والصحيح في هذه الحالة الثانية أنه في حكمِ المضطر، وأنه لا يُشترط في الضرورة أن يقف أمام الهلاك بعينه، حتى لو فرضنا مثلًا أنه كان في سفر وحضرته الصلاة، وأراد أن يتوضأ، فبحثَ عن الماء، فعلم أن الماء يُوجد على مسافة مثلًا نصف كيلو متر من المكان الذي هو فيه، وأن هناك بئرًا، وهذا البئر حوله سبعٌ قاتل، أو فيه حية تخرج وتقتله، أو أن الأرض التي فيها

البئر فيها هَوَامٌ والساعة من الليل، يغلب على ظنه أنه سيتعرض للهلاك لا محالة..

في هذه الحالة لا يُشترط أن يذهب إلى البئر وأن يرى السبع، ولا يُشترط أن يباشر الهلاك بعينه، فإذا غلب على ظنه فإنَّ الغالِبَ كالمُحَقَّق، وحينئذٍ لا يُشترط أن يباشر الهلاك، أو أن يرى الهلاك.

وهكذا في رخصِ الشريعة حتى في التيمم، لو أنه يعدل حينئذٍ ولا يجب عليه الذهاب إلى البئر ويتيمم، ولو كان معه عِرْضٌ كأهله وزوجه، وغلب على ظنه أنه لو وقف يصلي، أنه يتعرض في عرضه فيُنتهك، أو يأتي مَن يؤذيه ويقتله، أو كان مطلوبًا ونحو ذلك بدون حقٍّ مظلومًا، فيأتي شخص يريد أن يقتله فيطلبه ويجري وراءه، وعَلِمَ أنه لو نزل يصلي أنه يُقتل، فإنه مضطر، ولا يُشترط أن ينزل ويرى علامات الهلاك، أو أمارات الهلاك.

إذًا المضطر له حكمٌ خاص، ومن رحمة الله سبحانه وتعالى، أنه خفَّف عليه بتشريعه وفي أحكامه، واعتنت آيات القرآن، وأحاديث السُّنَّة عن رسول الله ﷺ، ببيان هذه التوسعة، ومن عادة العلماء رحمهم الله أن يذكروا أحكام الاضطرار في كتاب الأطعمة، وسَرَى.. درجَ المُصنِّف رحمه الله على ذلك، فقال رحمه الله: "بَابُ المُضْطَر"، نعم.

قال رحمه الله: "وَمَنِ اضْطُرَّ فِيْ مَخْمَصَةٍ، فَلَمْ يَجِدْ إِلاَّ مُحَرَّمًا، فَلَهُ أَنْ يَأْكُلَ مِنْهُ مَا يَسُدُّ رَمَقَهُ".

"وَمَنِ اضْطُرَّ فِيْ مَخْمَصَةٍ، فَلَمْ يَجِدْ إِلاَّ مُحَرَّمًا": إذًا هناك شروط:

الشرط الأول: أن يكون مضطرًا في المخمصة.

الشرط الثاني: ألا يجد إلا مُحرَّمًا.

فإذا كان مضطرًا في مخمصة، المخمصة: شدة الجوع، ويضطر في المخمصة الإنسان يقولون: يصبر عن الطعام كأقصى حد ثلاثة أيام، والغالب أنه يهلك، إذا مضت عليه ثلاثة أيام بدون أكل وشرب، قد يهلك فيما دون ذلك، لكن الكلام على غالب الناس، المعتدل من الناس أنه إلى ثلاثة أيام يصبر، فإذا أصابته المخمصة والمجاعة، ولم يجد إلا مُحرَّمًا، هذا الشرط الثاني.

إذًا قد يكون فيه مخمصة ومجاعة، ويجد حلالًا، ويجد طعامًا مباحًا، فإذا وجد طعامًا مباحًا

لم يكن مضطرًا؛ لأنه إذا صار في المخمصة ولم يجد إلا حرامًا، كأنه دُفِع بدون اختياره، فهو مضطر إلى الحرام، ومُلْجَأ إلى الحرام بغير اختياره.

إذًا يشترط أن يكون فيه سبب يدعو للرخصة؛ وهو المخمصة، وهذا معنى قوله تعالى: ﴿فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ﴾ [المائدة:٣]، وهي شدة الجوع ﴿غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ﴾ فهذا يدل على أن الاضطرار في المخمصة موجب للترخيص، وألا يجد إلا حرامًا، يعني: شيئًا محرمًا عليه.

جاز له "أَنْ يَأْكُلَ مِنْهُ مَا يَسُدُّ رَمَقَهُ"، أي: حلَّ له أن يأكل من الميتة، لم يجد إلا محرمًا، مثل أن يجد شاةً ميتة، أو يجد خنزيرًا، أو يجد محرم الأكل من السباع، كالنمر، والأسد، ونحو ذلك.. ما وجد إلا هذا الشيء وهو محرمٌ عليه، فهو مضطر في مخمصة لا يجد إلا حرامًا، حلَّ له وجاز.

طبعًا هناك في هذا الحُكمِ، أولًا: كلهم متفقون على أنه يُباح له أن يأكل من هذا الحرام، ولا حرج عليه.

- لكنَّ السؤال: هل يجب عليه أن يأكل؟ لأنه إذا ما أكل سيموت، فإذا علم أنه

إذا لم يأكل من هذا المحرم سيموت، هل يصبح الحرام -أكْل الحرام- واجبًا عليه، أم نقول له: أنت مخير؟

وجهان مشهوران لأهل العلم رحمهم الله:

من أهل العلم مَن قال: يجب عليه أن يأكل من المحرم إنقاذًا لنفسه؛ لأنَّ الله يقول: ﴿وَلا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾ [البقرة:١٩٥]، ويقول سبحانه: ﴿وَلا تَقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾ [النساء:٢٩].

فأمرنا الله عزَّ وجلَّ ألا نتسبب في قتلِ النفس، قالوا: فإذا امتنع من أكلِ هذا المحرم، فقد تسبب في هلاك نفسه، ولا يجوز للمسلم أن يقتل نفسه لا بالسببية ولا بالمباشَرَة، فهذا محرم عليه؛ لأنَّ الله نصَّ، وقال: ﴿وَلا تَقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ﴾ [النساء:٢٩]، فحرَّمَ عليه أن يقتل نفسه.

فقالوا: إذا لم يأكل من هذا المحرم، فإنه سيتسبب في قتلِ نفسه، ومن هنا صار واجبًا عليه، وهذا هو أقوى القولين.

ثم تأتي مسألة ثانية: لو كان مريضًا بمرضٍ عُضَال، وهذا المرض.. بمرضٍ شديد يفضي به إلى الموت، إذا لم يستخدمِ الدواء، أو لم يفعل الجراحة فإنه سيموت.

- هل يُصْبِح الدواء واجبًا عليه، كالحال في الميتة؟

❊ قال بعض العلماء: إنه لو كان مريضًا، وتوقفت نجاته -بإذن الله- على التداوي، صار التداوي فرضًا عليه، ويَحْرُم عليه أن يمتنع منه، وهذا اختيار بعض الفقهاء من أصحاب الإمام أبي حنيفة وغيرهم، رحمة الله عليهم.

❊ وذهب بعض العلماء إلى: أن التداوي يختلف عن الطعام، وهو مذهب طائفة من المحققين؛ لأنَّ التداوي ليس كأكل الميتة؛ لأنه إذا أكل الميتة فإنه سيقطع أنه سينجو، وأمَّا التداوي فيحتمل أن ينجو ويحتمل ألا ينجو.

ومن هنا قالوا: إنه في حال أكل الميتة الفرضية أقوى، ولكن في التداوي يحتمل أن يؤثر الدواء، فيشفى بإذن الله، ويحتمل ألا يؤثر.

ومن هنا قالوا: لو ترك التداوي لم يكن آثمًا، وقالوا: أن النبي ﷺ أقرَّ على ترك التداوي في الضرر، فإنَّ المرأة السوداء جاءت إلى رسول الله ﷺ، وقالت: يا رسول الله، إني أُصْرَع، فادعُ الله أن يشفيني.

فقال ﷺ: «إن شِئتِ دعَوتُ اللهَ لكِ، وإن شِئتِ صبرتِ ولكِ الجنَّةُ».

قالت: أصبر، ولكنِ ادعُ اللهَ لي ألا أتكَشَّفَ.

فقوله عليه الصلاة والسلام: «إن شِئتِ دعَوتُ اللهَ لكِ»، هذا الشفاء، «وإن شِئتِ صبرتِ ولكِ الجنَّةُ»، قالت: أصبر ولكن ادع الله ألا أتكشَّفَ، فلم ينكر عليها أنها لم تطلب الشفاء، فدلَّ على الفرق بين مسألة التداوي، وبين مسألة الأطعمة، ومن هنا بيَّن المصنف رحمه الله، أنه إذا اضطر الإنسان جاز له وحلَّ له أن يأكل من الميتة، نعم.

قال –رحمه الله-: "فَلَهُ أَنْ يَأْكُلَ مِنْهُ مَا يَسُدُّ رَمَقَهُ".

"فَلَهُ" أي: يجوز له أن يأكل، أي: من الميتة ما يسد رمقه، وهذا راجع إلى مسألة خلافية، لو أنه مضطر ووجد ميتة، هل يأكل بقدر ما يسد رمقه، فيباح له بقدر الضرورة، أم أنه يأكل إلى الشبع، ويجوز له حتى أن يتزود؟

وجهان للعلماء، وهما روايتان في المذهب عن الإمام رحمه الله.

- قال بعض العلماء: يأكل بقدر الضرورة، وهذا للأصل ألزم، والقاعدة أن ما جاز للضرورة يقدر بقدرها، وما أبيح أيضًا للحاجة يقدر بقدرها؛ ولذلك إذا كشف المريض عن عورته لم يجز للطبيب أن يجاوز موضع الحاجة، ولا أن ينظر زمانًا زائدًا عن الحاجة.

لأنه مقيد بالضرورة، فقالوا: إنه هنا الأصل أن الميتة حرامٌ عليه، أبيح له بقدر ما ينجي نفسه، فحينئذٍ يأكل بقدر ما يسد رمقه، وهذا محمولٌ على ﴿فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [المائدة:٣] فلا إثم عليه، قيل: أن يزيد ويتجاوز عن قدر الرخصة.

وقوله كذلك: ﴿فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلا عَادٍ﴾[البقرة:١٧٣]، ﴿غَيْرَ بَاغٍ وَلا عَادٍ﴾ أي: معتدٍ، وهذا مذهب طائفة من العلماء وهو ألزم للأصل وأقوى.

- وذهب بعض العلماء، وهي الرواية الثانية كما ذكرنا إلى أنه إذا وصل إلى مقام الاضطرار، سقط عنه التكليف، وحينئذٍ تسقط حرمة الميتة في حقه، فإذا سقطت حرمة الميتة في حقه، صارت كالحلال.

وأكدوا هذا بحديث أبي داود، في رجل الذي أصابته المخمصة في حرة المدينة، وهي حرة واقم، التي تسمى بالحرة الشرقية، وأجاز له النبي ﷺ أن يأكل، ولم يفصل بين أن يأكل بقدر حاجته أو يزيد، والمذهب الأول أقعد وأوفق بالأصول، نعم.

قال رحمه الله: "وَإِنْ وَجَدَ مُتَّفَقًا عَلَى تَحْرِيمِهِ وَمُخْتَلَفًا فِيهِ".

إذا وجد المضطر طعامًا محرمًا، ولكنَّ هذا الطعام وجده على صورة فيها ما اتفق على تحريمها، وفيها ما اختلف على تحريمه.

مثال ذلك: أن يجد حيوانًا اتفق العلماء على تحريمه كالخنزير، ويجد حيوانًا مختلف في تحريمه مثل السبع، جمهور العلماء على تحريمها، والمالكية على جوازها، على تفصيل عندهم رحمة الله عليهم، فلو وجد سبعًا ووجد خنزيرًا أكل من السبع؛ لأنه أخف حرمة، فإن المتفق عليه أشد حرمةً من المختلف فيه؛ لأنَّ المختلف فيه يحتمل أن يكون حلالًا.

ومن هنا قال السلف رحمهم الله في الخلاف: (قولٌ صوابٌ يحتمل الخطأ، وقول غيرنا خطأٌ يحتمل الصواب)، والله عزَّ وجلَّ عليمٌ حكيم.

ومن عظمة هذا الإسلام أن جعل الله نصوص الكتاب والسُنَّة في هذه الاحتمالات، التي ظهر فيها علم العلماء، وفهم الحكماء، وفاضل الله فيها بين عباده سبحانه، فهي نصوص محتملة، فإذا احتمل النص الأمرين نفس الاحتمال، هو إقرارٌ على الخلاف، فيما يسع الخلاف فيه، كما وقع في حادثة بني قريظة.

فالذي فيه خلاف أخف من الذي اتفق العلماء عليه، فحينئذٍ يأكل من الذي فيه خلاف، ولا يأكل من المتفق على تحريمهم، وقِس على هذا كما لو وجد ثعلبًا، أو قنفذًا، ووجد ميتة، فإن الميتة مجمع على تحريمها، والقنفذ والثعلب ليس بمجمع على تحريمه، ففيه خلاف.

وهكذا لو وجد فيلًا ووجد خنزيرًا، وقِس على هذا من المسائل، فالذي اختلف فيه أخف حرمة من الذي، الذي اختلف فيه أخف حرمةً من الذي اتفق عليه، نعم.

قال رحمه الله: "فَإِنْ لَمْ يَجِدْ إِلاَّ طَعَامًا لِغَيْرِهِ بِهِ مِثْلُ ضَرُورَتِهِ، لَمْ يُبَحْ لَهُ أَخْذُهُ".

الأسئلة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

السؤال: أثابك الله فضية الشيخ، وبارك الله في علمك المسلمين، وغفر الله لك ولوالديك ولجميع المسلمين.

فضيلة الشيخ هذا السائل يقول: ما الأمور التي يستفيدها الصائم من صوم شهر رمضان، وجزاكم الله خيرًا؟

الجواب: بسم الله، الحمد لله، والصلاة والسلام على خير خلق الله، وعلى آله وصحبه ومن والاه.

أمَّا بعدُ:

فإن الله عزَّ وجلَّ أنعم على هذه الأمَّة بهذا لشهر المبارك، وهو ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ﴾ [البقرة:١٨٥]، جعله الله عزَّ وجلَّ موسمًا من مواسم الخيرات.

أسعد الناس في شهر رمضان، من عقل عن الله عزَّ وجلَّ، وتدبر، وتفكر، وعمل بنصوص الكتاب والسُّنَّة، فصام صيامًا يرضي الله عنه، وأسعد الناس من التزم الهدى، وسار على طريق الرضا فاستكمل الأجر، وأدرك ليلة القدر، وصام على أتم ما يكون عيه الصوم في هذا الشهر.

يتأمل المسلم هذه الفريضة، فيجد فيها دروسًا عظيمة؛ ولذلك تجد الرجل يصوم ويتلذذ بصيامه، ويحس أن الله سبحانه وتعالى قد أنعم عليه بنعمة عظيمة، يصوم الناس، ويصوم

الرجلان، وبين صيام بعض كما بين السماء والأرض، يصوم الرجل فيمسك ساعة، لا يمكن أن تعدل بها أيام من صوم غيره؛ لأنه يصوم صيام المخلصين، صيام المتقين، صيام الذين عقلوا عن الله رب العالمين.

هنيئًا ثم هنيئًا لمن تدبر وتأمل وتلذذ، وقد تقرحت أمعاؤه، وظمئت أحشاؤه، فأحس أنها قد جاعت لله رب العالمين، وأنها ظمئت في مرضاة إله الأولين والآخرين.

أعظم شيء يستفيده الإنسان من هذه الشعيرة، ومن هذه الأيام المباركة، ومن هذا الموسم العظيم، تقوى الله والإخلاص لله سبحانه وتعالى، هذه الأيام التي تمر على المسلم، كلها تحرك في المسلم أساس الدِّين والملة، تعلمه أن يريد وجه الله وأن لا يريد أحدٌ سواه.

ثلاثون، أو تسعٌ وعشرون يومًا مدرسة خلال السنة؛ لكي تعلِّم المسلم أن يكون عبدً لله، وألا يكون عبدًا لأحدٍ سواه، تعلمه كيف يخلص لله؟ كيف يربي نفسه على التوحيد؟ كيف يربي نفسه على الصفاء، والنقاء، والخلوص لله وحده لا شريك له؟ القلب السليم؛ ولذلك يقول الله في هذا: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة:١٨٣].

التقوى ما هي؟ وأين مكانها؟ قال ﷺ: «التقوى هٰهنا» هٰهنا، ما هو الذي يسكن القلب، فالقلوب مساكن التوحيد، مساكن الإيمان، مساكن الإخلاص، مساكن الإحسان.

ثلاثون يوم، أو تسعٌ وعشرون، يومًا تنادي الإنسان كفى كذبًا، ونفاقًا، وغشًا، وتدليسًا، يمسك الإنسان عن الطعام والشراب، وهو قادر بإذن الله أن يتوارى عن أنظار الناس فيأكل ويشرب، ولكن لسان حاله يقول: ﴿إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ [المائدة:٢٨]، لسان حاله يقول: إن الله يسمعني ويراني، لسان حاله يقول: إني لا أستطيع أن أغيب أو أتوارى عن الذي لا يخفى عنه شيء في الأرض ولا في السماء.

مدرسة إيمانية لأعظم الأشياء وأحبها إلى الله وهو الإخلاص، من خرج من شهر

رمضان وقد تعلم كيف يخلص لربه؟ فقد خرج بأعظم زاد خرج به عبدٌ من هذه الدنيا ﴿وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى ﴾ [البقرة:١٩٧]، ما خلقنا الله لنخرج من هذه الدنيا بالسمعة، والثناء، والمدح، والكذب، والغش، ولكن لنخرج مخلصين، مخبتين، منيبين، وعندها يطيب العب حيًّا وميتًا.

الصوم مدرسة للإخلاص؛ ولذلك أول صفة زكى الله بها الصوم والصائم، في الحديث القدسي: «كلُّ عملِ ابنِ آدمَ له إلَّا الصَّوْم فإنَّه لي»، تأمل قوله: «فإنَّه لي» المراد به: أنه خالص لله؛ لأنَّ الصوم ما يستطيع أحد أن يرائي فيه، يستطيع أن يتوارى عن الناس ويفطر، ولكنَّ الله زكَّى الصوم والصائم، فقال: «إلَّا الصَّوْم فإنَّه لي»، ولما كان لما لله فقال: «وأنا أجْزِي بِهِ» فالحسنة بعشر أمثالها، إلا الصوم فيكون جزاؤه أضعافٌ مضاعفة، لا يعلمها إلا الله، وذكر بعض العلماء أن الصوم اشتمل على الصبر، والله يقول: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر:١٠]

أول مدرسه الإخلاص، أن تنادي نفسك عند غروب الشمس، وأن تقف في نهاية كل يوم؛ لتنادي نفسك أين أنت مع المعاملة مع الله؟ وهذا الكلام الذي تقوله، والعمل الذي تعمله، والسهر الذي تسهره، والذهاب والمجيء هل هو لله، أو لغير الله؟ تعيد النظر، مدرسة تهذب بها أخلاقك، وأقوالك، وأعمالك لله، وتعلم أن الميزان شيءٌ واحد، أنه لا يزال الرجل بخيرٍ إذا تكلم، تكلم لله، وإذا عمل، عمل لله.

ثانيًا: أن هذا الصوم حرك القلوب لله سبحانه وتعالى، فإن في أيام شهر رمضان مدرسة عظيمة للصلاح، والفلاح، والاستقامة، والخير، والربح، والنجاح، ومن هنا قال ﷺ: «إذا دَخَل رمضانُ فُتِحَتْ أبوابُ الرَّحمةِ».

فالله أعلم كم من ضالٍ دخل عليه شهر رمضان، فخرج وهو مهتدٍ لله؟ وكم من بعيد طريد دخل عليه شهر رمضان، فخرج عليه وهو قريبٌ من الله؟ وكم من مكروبٍ منكوب

دخل عليه شهر رمضان وهو في همه وكربه، وخرج منه وهو بلا همٍ ولا كرب؟ أيام نفحات وساعات رحمات، يتنافس فيها المؤمنون والمؤمنات، يشمر المسلم عن ساعد الجد، ولا يرضى لنفسه بالقليل؛ بل يسعى إلى الله العظيم الجليل.

وهذا الشهر فيه مواقف وعبر ومدرسة للمؤمن أثناء صومه، وعند فطره، وفي جميع ساعات شهره، فهو يقف مثلًا، من عبر رمضان يقف في آخر ساعة من يومه، تأمل وقد دنت الشمس من الغروب، وقد وضع بين يديك الطعام والشراب، تأمل حالك طيلة اليوم، وأنت محرومٌ من هذا الطعام والشراب لوجه الله سبحانه وتعالى، فإذا بك تجد الظمأ، والعطش، والنفس تتعب؛ لأن النفس البشرية ضعيفة، فالجوع يؤذيها والظمأ يضعفها..

فإذا وقفت في آخر اليوم سل نفسك ما الذي بقي من التعب والنصب؟ واسأل نفسك ما الذي بقي من الظمأ والنصب؟ وإذا بك تغرب عليك شمسك، وإذا بحال الإنسان يقول: «ذهب الظمأ وابتلت العروق وثبت الأجر إن شاء الله».

كل طاعة لله عزَّ وجلَّ هكذا، أولها عناء وتعب ونصب، ولكن العبرة بالعاقبة، فكل ما يمر بك من فتن هذه الدنيا، وكل ما ترى من شدائدها وأهوالها عليك، أو على الإسلام، أو على المسلمين، لا تنظر لحالك، ولكن اعلم أن العاقبة بالمآل، وأن هذا الضيق والشدة، إذا كان يعقبها رحمة من الله، وفضل من الله، وإحسان من الله عزَّ وجلَّ..

فنِعم واللهِ الضيق، ونِعم واللهِ الشدة، إذا كانت تغيب شمس يوم رمضان والله وحده الذي يعلم، فكم غابت شمس يومٍ فغيبت معها من الذنوب ما لا يعلمه إلا الله عزَّ وجلَّ؟

كم من صائم يقف في آخر يومه، وقد صام لربه مخلصًا من قلبه، ولا يريد إلا وجه الله، وعف لسانه في الصوم، وعفت عينه، وعفت جوارحه، ووقف في آخر يومه وهو لا يعلم أن ذلك اليوم هو أسعد يومًا يمر عليه في حياته؟ إذ غابت لشمس فغيب الله ذنوب عمره كلها، وما ذلك عن الله بعزيز.

فالذي غفر الذنب بشربة ماءٍ من زانية، غفر الله له ذنوبه عمرها، هو أكرم سبحانه

وتعالى أعظم من أن يغفر، في تكرمه، ورحمته، وبره، ولطفه بعباده سبحانه أن يغفر ذنوب العبد.

يقف الإنسان في شهر رمضان؛ لكي يتذكر إخوانه الجائعين، والبائسين، والمحتاجين، فيمد لهم يد العون، مدرسة للتراحم، والتلاحم، والتعاطف، والتكاتف، والتآلف، مدرسة أن يتذكر الأكباد الجائعة، وأن يتذكر الأحشاء الظامئة، أن يتذكر أيتام المسلمين، وأراملهم، ومنكوبيهم، فيقدم ما يستطيع؛ فلعل شق تمرة أن تحجب النار عن وجهه.

قال ﷺ: «ما مِنْ عَبْدٍ إلَّا وسيُكَلِّمُهُ اللهُ ليسَ بينَهُ وبينَهُ ترجمانٌ، فينظرُ أيمنَ منهُ فلا يرى إلَّا ما قدَّمَ»، أي: من الأعمال الصالحة «وينظرُ أشأمَ منهُ»، يعني: شمالِهِ، «فلا يرى إلَّا ما قدَّمَ»، أي: من السيئات، «وينظرُ تلقاءَ وجهِهِ، فلا يَرَى إلَّا النَّار، فاتَّقوا النَّارَ ولَو بشقِّ تمرةٍ»، الله أكبر، شق تمرة، نصف تمرة.

هل علمت أن نصف تمرة يحجب العبد من النار؟! نصف تمرة! امرأة دخلت على عائشة معها طفلتان، فاستطعمت أم المؤمنين فأعطتها ثلاث تمرات، فأعطت كل صبيةٍ تمرة، ثم أخذت تمرتها تريد أن تأكلها، فاستطعمتها إحدى البنتين تمرتها، فأكلت البنت تمرتها، ثم جاءت إلى تمرة الأم، جاءت إلى تمرة الأم، فاستعطفت الأم، فالتفتت إليها بحنان الأم ورحمتها، فما كان ن الأم إلا أعطتها تمرة.

ثم دخل عليها عليه الصلاة والسلام على عائشة، فعجبت عائشة مما صنعت، فلما دخل رسول الهدي ﷺ عليها، أخبرته خبر المرأة فنزل الوحي من فوق سبع سماوات، إلى رسول الله ﷺ من أجل تمرة، هذا الوحي ينزل إلى رسول الله ﷺ من أطباق السماوات العلا؛ لكي يخبره أن الله حرمها على النار بتمرتها تلك.

إذا كان تمرة حرَّم اللهُ بها عن النار، فما بالك بمَن يُفطِّر الصائم؟ وما بالك بمن يكسو العورة؟ وما بالك مَن يقوم من عنده المكروب، والمنكوب، والمديون، وقد فرج عنه كربه وهمه؟

اللَّهم لا تحرمنا بفضلك، ولا تُحِل بيننا وبين رحمتك بما كان من ذنوبنا وتقصيرنا..

المؤمن يشمر عن ساعد الجد في هذا الشهر الكريم، إذا كان تمر على المسلم تسعٌ وعشرون يومًا، أو ثلاثون يومًا، لا تحرك فيه الرحمة للمسلمين فوالله ما صام صيام الصائمين، وليبكِ على نفسه إذا لم يحرك من الناس، من يتحرك للضعفاء، والأيتام، والبؤساء، في أول ساعة من صومه، ومنهم من يتحرك في اليوم الأول، ومنهم في الثاني، ومنهم في الثالث، والسعيد من سبق ولم يُسْبَق، فنسأل الله أن يجعلنا وإيَّاكم من السابقين.

يتأمل من الدروس والعِبر في شهر رمضان، أن يعظم نعمة الله عزَّ وجلَّ عليه بالهداية والرحمة؛ ولذلك أمرنا الله أن نكبر على ما هدنا، وأن نشكره، فنحمد الله ونشكره على هذه النعمة بهذا الشهر الكريم، ونسأله أن يرزقنا صيامه وقيامه على الوجه الذي يرضيه عنّا.

مما يوصى فيه المسلم في هذا الشهر: أن يتأسى برسول الله ﷺ؛ بالسُّنَّة، فيصوم، يُؤَخِّر سحوره، ويُعَجِّل فطره..

يأخذ بسُنَّة النبي ﷺ وهديه، فيعف لسانه عن سب الناس، وشتم الناس، وأذية الناس، والغيبة، والنميمة، والوقيعة في أعراض المسلمين..

أن يتعلم عفة اللسان، وأن يتعلم أين يضع لسانه إذا تكلم في المسلمين وإخوانه؟

كذلك أيضًا أن يأخذ من هذا الشهر مدرسة لمذاكرة القرآن، والتدبر في القرآن، فشهر رمضان هو شهر القرآن.

ولذلك كان جبريل يلقى رسول الله ﷺ في شهر رمضان، فيدارسه القرآن، كثرة مدارسة القرآن، كثرة سماع القرآن.

وعلى المسلم: ألا يضعف، ولو كان الزمان كثير الفتن كثير المحن، فأحب الناس إلى الله أثبتهم على دينه في شدة الفتن والمحن.

وإيَّاك أن يضعفك حالك أو حال الناس، عليك أن تعلم أن الدِّين دين الله، وأن الكلمة كلمة الله، وأنه مهما تعاقب الزمان، وتتابع المَلَوَان، فلا زالت لا إله الله تدوي في أرجاء

المعمورة، ما استطاع أحد أن يمنعها، ولن يستطيع أحد أن يرد كلمة الله عزَّ وجلَّ.

فتعتز بهذا الدِّين، وألا ينكسر لك، ولا تلين لك شوكة في طاعة الله ومرضاة الله، ولا تتخاذل، ولا تضعف؛ لأنَّ شهر الصبر يقوي النفوس، ويقوي العزائم، ويخرج المسلمين منه وهم أشد شكيمة، وأكثر صبرًا وثباتًا وخاصةً على دين الله ومرضاة الله.

وإن أيام الصبر للعامل فيها مثل أجل خمسين، قالوا: يا رسول الله منَّا أو منهم؟ قال: «بل منكم إِنَّكُم تَجِدُونَ عَلَى الحق أَعْوَانًا، وَلَا يَجِدُونَ عَلَى الحَقِّ أَعْوَانًا»، فاثبت على دِين الله، وخذ من شهر رمضان وشهر الصبر، ما يصبرك على مرضاة الله ويثبتك على الحق، حتى تلقى الله.

فاللهم نسألك أن تجعلنا هداة مهتدين غير ضالين ولا مُضلين، ثبتنا على الحق على الوجه الذي يرضيك عنّا، واجعل شهر الصيام والقيام شهر خيرٍ وبركةٍ على الإسلام والمسلمين.

اللّهم انصر دينك وكتابك، وسُنّة نبيك، وعبادك المؤمنين، اللّهم انصر دينك وكتابك، وسُنَّة نبيك، وعبادك الصالحين، واجعلنا منهم يا أرحم الراحمين.

اللّهم ثبت أقدامنا على طاعتك، وثبت سهامنا في مرضاتك ومحبتك، إله الأولين والآخرين.

اللّهم اغفر للمؤمنين والمؤمنات، والمسلمين والمسلمات، الأحياء منهم والأموات.

اللّهم فرِّجْ هَمَّ المهمومين، ونفِّس الكرب عن المكروبين، واشفِ مرضانا ومرضى المسلمين.

اللّهم اهدنا ولا تضلنا، وارحمنا ولا تعذبنا، سامحنا ولا تؤاخذنا، وزدنا ولا تنقصنا، واعطنا ولا تحرمنا، وآثرنا ولا تؤثر علينا، وارضنا، ورضِّنا، وارض عنَّا.

اللّهم وفِّق المسلمين لما تحبه وترضاه، اللّهم ارحم ضعف المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها، اللّهم اجعل لكل مهمومٍ ومغمومٍ من همه وغمه فرجًا ومخرجًا، اللّهم اجعل له فرجًا ومخرجًا، اللّهم اجعل لنا ولهم من كل غمٍّ فرجًا، ومن كل ضيقٍ مخرجًا، ومن كل بلاءٍ عافية.

اللَّهم وفِّق ولاة المسلمين لما تحبه وترضاه، وخذ بنواصيهم إلى البر والتقوى، اللَّهم اجعلهم رحمةً للمسلمين في مشارق الأرض ومغاربها، ووفِّق ولاة أمورنا لما تحبه وترضاه، اللَّهم وفِّق ولي أمر المسلمين لطاعتك، ومحبتك، ومرضاتك، اللَّهم هيِّئ له البطانة الصالحة التي تعينه على الخير، اللَّهم هيِّئ له البطانة الصالحة التي تعينه على الخير، واجعل له في أموره رشدًا يا أرحم الراحمين.

﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ (١٨٠) وَسَلامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ (١٨٢) وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٨٢) ﴾ [الصافات: ١٨٠-١٨٢]